مجتمع الصحراء في الكتابات الاستعمارية

تنسيق وتقديم
رحال بوبريك

عنوان الكتاب :

مجتمع الصحراء
في الكتابات الاستعمارية

تنسيق وتقديم

رحال بوبريك
boubrik@yahoo.fr
جميع الحقوق محفوظة للمنسق
السحب :

المطبعة السريعة

شارع محمد الخامس، الزنقة 22 ، رقم 2
القنيطرة
الهاتف : 0537 36 28 09
0537 36 45 58
الفاكس : 0537 36 64 64

imprimerie-rapidekenitra@hotmail.com

الطبعة الأولى 2010

الإيداع القانوني : 2010/1335

طبع هذا الكتاب بدعم من وكالة الجنوب

L'AGENCE DU SUD

الصحراء الأطلنتية من خلال الكتابات الفرنسية

نموذج فريديريك دولاشابيل F. De la Chapelle

ذ. رحال بوبريك،

كلية الآداب، القنيطرة.

سنحاول في هذا المقال تقديم رؤية الدراسات التي أنجزت إبان الفترة الاستعمارية حول الصحراء الأطلنتية، مع التركيز على نموذج من هذه الدراسات بالتحليل لوضع القارئ أمام الأطروحات المتداولة في الوسط العلمي الفرنسي والخلفيات الأيديولوجية التي حددت إنتاجها و وظيفتها السياسية في تلك الفترة و أيضا تأثيرها على صيغة كتابة تاريخ الصحراء. والنص موضوع الدراسة لفريديريك دولاشابيل F. De la chapelle المنشورة سنة 1930 تحت عنوان «Esquisse d'une histoire du Sahara occidental» "نبذة عن تاريخ الصحراء الغربية"[32]. وقبل الخوض في موضوعنا نقدم بشمل موجز السياق التاريخي الذي طبع اهتمام الأجانب بالصحراء، خصوصا الفرنسيون منهم.

شكلت منطقة الصحراء الأطلنتية الواقعة بين وادي نون ووادي الذهب، منطقة استقطاب بالنسبة للدوائر الاستعمارية، وذلك منذ الاكتشافات الكبرى. فمنذ نهاية القرن الثالث عشر بدأ الملاحون الأوربيون وخاصة الإسبانيين والبرتغاليين يقومون بزيارات سريعة للسواحل الأفريقية المقابلة لجزر الكناري. وابتداءا مع مطلع القرن

[32] - CHAPELLE, F. DE LA, « Esquisse d'une histoire du Sahara occidental », *Hespéris*, Vol. XI, 1930, pp. 35-95.

15م كثف البرتغاليون نشاطهم من أجل اكتشاف الصحراء الأطلنتية من خلال السواحل[33]. وتوج مجهودهم بنجاح البرتغالي جيل أيانس (Gel Eanes) سنة 1434م مع وصوله إلى "رأس بجدور"، واجتيازه نحو الجنوب بتشجيع من الملاح "هانري"، وهو أمير برتغالي اشتهر بتشجيع الكشوفات الجغرافية. وكانت الكنيسة تساند هذه الحملات الاستكشافية وتريد تتويجها باستعمار للمنطقة في إطار حملتها التبشيرية وحرب الاسترداد التي لم تتوقف عند بلاد الأندلس.

وفي سياق هذا الاهتمام بعث الملك خوان الثاني، خهاو رودريكيز Johao Rodriguez، سنة 1493 إلى المنطقة حيث أقام بها مدة سنتين وعاد إليها مرارا. وبناء على المعلومات التي جمعها في الميدان، أنجز البرتغالي فرناندیس Valentin Fernandes في نصه المنشور تحت عنوان "وصف الساحل الإفريقي من سبتة حتى السنغال من طرف فلانتان فرناندیس (1506-1507)"[34]. حيث نجد وصفا للقبائل التي كانت متواجدة حينئذ في الصحراء مع بدايات وصول القبائل المعقلية[35]. وتناول المنطقة نص ثان لدورات باشكو بيريرا Durate Pacheco Pereira[36]، خصص فيه مؤلفه جزءا لمنطقة اركين التي كانت مستوطنة برتغالية في ذلك الحين. يحدثنا النص المذكور عن تواجد العرب وازناگة (صنهاجة) ويعطينا معلومات عن التجارة التي كانت قائمة حينئذ والساكنة[37].

تواصلت البعثات الاستكشافية نحو المنطقة منذ هذا التاريخ، وكان القرن التاسع عشر الفترة التي عرفت أكبر عدد من النصوص

---

[33]- راجع:
RICARD, R., « Les Portugais et le Sahara atlantique au XVe siècle », *Hespéris*, T. XI, 1930, pp. 108-110

[34] - CENIVAL. P. DE., et MONOD, TH., « Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal par Valentin Fernandès (1506-1507) », Librairie Larousse, 1983.

[35]- انظر كتابنا : دراسات صحراوية: المجتمع و السلطة و الدين، دار النشر أبي رقراق، الرباط، 2005 (الطبعة الثانية 2008)، الفصل الثالث.

[36] - RICARD, R., « Les Portugais et le Sahara atlantique au XVe siècle », op. cit.

37 - Ibid, p. 108

المنشورة من طرف مكتشفين ورحالة وغرقى حول المنطقة، كما يتجلى ذلك من خلال الجدول الذي وضعه موريس باربيي في كتابه حول الموضوع [38].

وقد تعددت الدوافع التي كانت وراء هذه الرحلات، فمن أصحابها من وجد نفسه أسيرا بعد غرق سفينته، ومنهم من أرسل من طرف جهات استعمارية، ومنهم من دفعته روح المغامرة واكتشاف شعوب أخرى، خاصة الصحراء، التي كانت من المناطق التي تثير حسب الاستطلاع والمغامرة، فهي غالبا ما كانت تشبه بمحيط océan مجهول.

لا يكمن هدفنا في هذه الصفحات التأريخ للكتابات الأجنبية حول الصحراء، بل فقط وضع إطار عام لبداية الاهتمام في الكتابات الغربية بالصحراء الأطلنتية، من أجل التمهيد للنص الذي يعنينا ووضعه في سياقه، وسنركز في الصفحات التالية على اهتمام الفرنسيين بالذات ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

في الواقع لقد بدأت الرحالات الفرنسية نحو الصحراء قبل هذا التاريخ، ولكن ابتداء من هذه الفترة أصبح اهتمام فرنسا بالصحراء واضح المعالم والأهداف الاستعمارية. فلقد بادر حاكم السنغال ووزارة الملاحة والمستعمرات بإرسال ليوبولد باني Léopold Panet، الذي تقمص شخصية مسلم من أصل جزائري، في مهمة سنة 1850 لدراسة وسائل الاتصال الممكنة بين مستعمرتي السنغال والجزائر. كما كان مكلفا أيضا بالدخول في علاقة مع الأعيان المحليين في الصحراء من أجل التفاوض على اتفاقيات تجارية. لذا دخل في اتصال مع الشيخ بيروك في واد نون ليحد من أطماع الإنجليز، الذين كانوا قد اتصلوا بدورهم ببيروك بواسطة دافدسون Davidson سنة

[38] - BARBIER, M., *Voyages et explorations au Sahara Occidental au XIXème siècle*, l'Harmattan, 1985, Paris, p. 6.

1830. ولقد دون باني رحلته في كتاب مهم عن المنطقة في هذه الفترة.[39]

وفي سنة 1860 (ما بين 5 مارس و14 مايو) نظمت بعثة أخرى، بتكليف من حاكم السنغال Faidherbe، اتجاه البلد وخاصة إلى تيرس وأدرار واركين أسندت مهمتها للقبطان فانسن Vincent[40]. وكان هدف البعثة القيام باتصالات مع أعيان الصحراء. ولما وصل القبطان فانسن لمخيم لأولد اللب (فرع من أولاد دليم) قرب سبخة إيجيل، كان له لقاء ساخن مع شيخ أولاد اللب، اعلي ولد محمد ولد احمد. فلقد شرح فانسن الأهداف التي كلفها به حاكم السنغال لتبليغها لأعيان البلد. وتتلخص في : استقطاب تجارة غرب الصحراء إلى السنغال، وحماية القوافل التي تمر من مجال قبيلته، إضافة إلى حماية غرقى السفن وإيصالهم إلى سان لوي Saint Louis. وبعد أن استمع الشيخ إلى عرض فانسن كان رده الرافض ينم على وعي بالأهداف الحقيقية للفرنسيين. فلقد كان جوبه واضحا "اعرف أنكم أتيتم بنية الغزو"[41].

في السنة نفسها (1860) عزم بو المقداد Bou el Moghdad، أحد أعيان سان لوي الذي رافق فانسن في بعثته، على التوجه إلى الحج. وكلفه الحاكم العام فيدرب Faidherbe، مقابل توفير المساعدة له، بمهمة جمع معلومات عن الصحراء. استغلها فيدرب Faidherbe في كتابة مقال سنة 1895، عن سكان المنطقة. كما استغل في نفس السياق ماورد من معلومات لدى أحد المغاربة الذي قام برحلة من مراكش

---

[39]- LEOOPOLD, P., *Première exploration du Sahara occidental, Relation d'un voyage du Sénéagl au Maroc*, 1850, Paris, Le livre africain, 1968

[40] - VINCENT, « Voyage d'exploration dans l'Adrar, (Sahara occidental », *Revue Algérienne et Coloniale*, octobre 1860, pp. 445-494.

[41]- اعتمدنا على النص المنشور في كتاب:

BARBIER, M., op. ; cit. ; p. 160

إلى سان لوي، ودون نصه تحت عنوان "معلومات جغرافية عن الجزء من الصحراء الواقع بين واد نون والسودان"[42].

يشير فيدرب إلى أهمية تيرس بالنسبة للرحل الذين يأتون إليه من واد نون شمالا حتى السنغال بين شهري اكتوبر وماي لخصوبة مراعيه[43]. ويخلص إلى التأكيد على إنشاء مركز تجاري في اركين لاستقطاب ولتحويل مسار التجارة القادمة من أدرار وتيشيت وتومبكتو وذلك للاستغناء عن دور الترارزة كوسيط بين أدرار وسان لوي. أما فيما يتعلق بالتجارة التي تمر من السودان عبر واد نون في اتجاه مدينة الصويرة، فإنه ينصح بإنشاء مركز عند مصب وادي نون أو واد درعة. ولقد أشار إلى رغبة بيروك في إنشاء مركز في هذه المنطقة، واصفا بشكل مبالغ فيه وادنون بدولة مستقلة Etat indépendant ومركزا على طبيعة العلاقة المتوترة بين بيروك والسلطان عبد الرحمان وكيف اضطر هذا الأخير للتنازل له عن 1/10 من الضرائب على البضائع.

نضيف إلى هؤلاء الرحالة كامل دولس Douls الذي وصل إلى شواطئ الصحراء سنة 1886 قادما من جزر الكناري مدعيا أنه مسلم. لم يكن دولس مكلفا -رسميا- بمهمة، لكنه حين عاد إلى فرنسا طلب منه تقديم معلومات عن مدة إقامته التي دامت خمسة أشهر في الصحراء عند أولا دليم والتي جاب خلالها مختلف مناطق الصحراء[44]. ويعتبر دولس الأجنبي الوحيد، حسب علمنا، الذي التقي الشيخ ماء العينين وقدم معلومات قيمة عنه في هذه المرحلة المتقدمة من استقراره في الساقية الحمراء.

---

[42] -COLONEL FAIDHERBE, « Renseignements géographiques sur la partie du Sahara comprise entre l'ouesd Noun et le Soudan », *Nouvelles Annales des Voyages*, t.3 ; août, 1859. Voir Maurice Barbier , op. ; cit. ; 145.

[43] - Ibid, p. 147

[44] - DOULS, C., « Cinq mois chez les Maurs nomades du Sahara occidental, 1887 », Le tour du monde, 1er semestre 1888, pp. 177-224.

بدوره خصص، ألفريد لوشاتولييه Alfred Le Chatelier، الضابط المختص في الشؤون الأهلية والأستاذ بكرسي "السوسيولوجيا المسلمة Sociologie musulmane" بكوليج دوفرانس بباريس، ومؤسس البعثة العلمية بالمغرب، دراسة للمنطقة وتحدث في نصه المنشور سنة 1891 عن وادنون كونه "المركز السياسي لعدد كبير من القبائل العربية والبربرية"[45] كما أنه يذكر أن سلطة أهل بيروك ضعفت بعد وفاة بيروك. فابنه الحبيب لم يعرف كيف يحافظ على إرث أبيه ومكانته.

كانت السياسية المتبعة غير واضحة المعالم. والرحلات "الاستكشافية"، ذات الأهداف الاستعمارية لم تتوقف إلا مع بداية القرن 20. ففي أواخر القرن 19 قام العديد من الفرنسيين برحلات انطلاقا من السنغال دون تجاوز منطقة أدرار شمالا : سولي 1879 فابر (1891) وبلانشييه (1900). كل هذه الرحلات كانت تدخل في إطار المشروع الاستعماري الفرنسي في الصحراء. ومن جانبها كانت الهيئات القنصلية الأجنبية في طنجة وموكادور تتابع عن كثب أحداث الصحراء.

كانت الصحراء الأطلنتية مجالا تتصارع عليه أطماع استعمارية فرنسية واسبانية وانجليزية في البداية، لينحصر الأمر في الأخير بين فرنسا واسبانيا. ومع بداية القرن العشرين اتفقت الدولتان على حدود استعمارية[46] قسمت البلد بينهما دون مراعاة الظروف التاريخية والاجتماعية لمكوناته.

وابتداء من هذا التاريخ هيمن على الكتابات الفرنسية في تناولها للصحراء الهاجس الأمني والرهانات السياسية. فبحكم أن أحد أهم

---

[45] - LE CHATELIER, A., Tribus du Sud-Oeust marocain. Bassins côtiers entre Sous et Drâa, Lerous, Paris, 1891.

[46]- عن مجمل هذه الإتفاقيات انظر كتاب :

REZETTE, R., *Le Sahara occidental et les frontières marocaines*, Nouvelles éditions latines, Paris, 1975.

معاقل المقاومة ضد التدخل الفرنسي في موريتانيا يتواجد في الصحراء، ونقصد السمارة، فإن التقارير والكتابات ركزت على شخصية ماء العينين وحوليات، ما تسميه هذه التقارير بالتهدئة pacification.[47] انطلاقا من العقد الثاني من القرن العشرين، ستظهر دراسات حول قبائل الصحراء مع بول مارتي Paul Marty، الباحث الذي كتب عن كل قبائل الصحراء تقريبا. فبعد أن تناول وادي الذهب[48] الذي يعني له الصحراء الاسبانية، في مقال سابق، عاد بتفصيل سنة 1921 لقبائل الصحراء التي كان يسميها قبائل موريتانيا العليا[49]، منجزا أول دراسة عن قبائل الصحراء انطلاقا من الجنوب، لأن الدراسات اللاحقة ستتم من خلال الشمال، خصوصا فيما يتعلق بتحالف قبائل تكنة مع دولاشابيل[50] ومونتاي[51] ومارتان[52] [53] والكولونيل برنار وغيرهم.

كان هذا المدخل العام ضروريا لفهم السياق العام لنشأة الكتابات حول الصحراء، والذي توجت بعدد من مجلة هسبريس Hespéris خاص بـ "الصحراء الغربية". هذا العدد صدر سنة 1930 عن أهم

47- مثال :

ALBERT, P., « Chikh Ma el-Aïnine de Seguiat el-Hamra », *Bull.Soc. Géogr. d'Alger*, 4° trim. 1906, p. 401-405.
AL-MOUTABASSIR. « Ma el Aînin ech Changuity », *Rev. Monde mus.*,(I), 1907, p. 343-51

48- MARTY, P., « Le Sahara espagnol (Rio de Oro) », *Rev. Monde musulman*, t. XLVI, août 1921

49- MARTY, P., « Les tribus de la Haute-Maurtianie : les Tekna (Oued -Noun) », *BCAF*, 1915

50 - CHAPELLE, F. DE LA, « Les Tekna du Sud Marocain : Etude géographique, historique et sociologique » *BCAF*, 1934.

51 -MONTEIL, V., *Note sur les Tekna*. Institut des Hautes Etudes Marocaines, Laros, Paris, 1948.

52 -MARTIN, H., *Les Oulad Bou Sba. Une tribu marocaine en Mauritanie*, Mémoire CHEAM, n° 3108, 1937.
MARTIN, H., « Les Tribus du Sahel et du Rio de Oro », *Bull. IFAN*, 1, 1939, 587-629.

53 -LIEUTENANT-COLONEL M. BERNARD, « Le Sahara Occidental : le Sahara Espagnol - Les tribus », *Terre Aire Mer la Géographie*, LIX, n° 5 et 6, mai-juin 1933, pp. 345-370.

مؤسسة علمية تحت الإشراف المباشر لصانع مغرب الحماية المقيم العام بالمغرب، اليوطي : معهد الدراسات العليا المغربية بالرباط. ففي 30 ماي 1930 عقد معهد الدراسات العليا المغربية بالرباط Institut des Hautes Etudes Marocaines مؤتمرا حول الصحراء وذلك قصد، كما جاء في الافتتاحية، " الوقوف عند حصيلة معرفتنا حول الصحراء الغربية". ولقد عقدت الجلسة الافتتاحية بحضور شخصيات الحماية البارزة، يترأسهم المقيم العام بنفسه وبحضور رسمي لاسبانيا ممثلة بضابط عسكري من وزارة الحربية، لكون اسبانيا هي القوة الاستعمارية التي تحتل الجزء الأكبر من الصحراء، وحتى لا يفهم من هذا اليوم الدراسي كأنه تدخل في الشؤون الداخلية الاسبانية، خصوصا ونحن نعرف الصراع المعلن أحيانا والخفي دائما الذي ظل يحكم علاقة فرسنا باسبانيا فيما يتعلق بالصحراء.

وفي كل تدخلات الشخصيات الرسمية التي افتتحت المؤتمر، سواء الفرنسية منها أو الإسبانية، كانت المرجعيات التاريخية والفكرية حول الصحراء تعود للحقبة الكتابات الاستعمارية مثل كوتييه وميشوبيلير. فكوتيه الأستاذ بكلية الجزائر، والمعروف بكتاباته المتعصبة، كان من الأوائل الذين نبهوا إلى شح المعلومات المتوفرة عن الصحراء. أما ميشوبيلير، فهو يعتبر أهم باحثي البعثة العلمية، فهو المنظر الاستعماري للمقيم العام اليوطي في مغرب الحماية، وعرف بكتاباته الغزيرة عن المغرب إلى حدود وفاته سنة 1930، بعد أن كرس كل حياته للبحث حول المغرب، الذي قدم له وهو يبلغ من العمر 27 سنة. وسنلاحظ بشكل واضح تأثير هذين الباحثين على رؤية كل الكتابات حول الصحراء، خاصة فيما يتعلق بالأطروحة المركزية المتمثلة في الصراع بين البربر والعرب.

وتم الإلحاح في المداخلات الرسمية على ضرورة تكثيف الأبحاث حول الصحراء نظرا لأهميتها التاريخية والسياسية والإستراتجية بالنسبة للمغرب والمنطقة. لقد تعددت اهتمامات

المتدخلين في هذا المؤتمر، حيث نجد أسماء باحثين عرفوا بدراساتهم وبباعهم الكبير في دراسات المجتمعات الصحراوية من طينة بول مارتي، الذي نشر العديد من المنوغرافيات[54] القبلية حول موريتانيا والذي يمكن أن نقول وبدون مبالغة أنه المتخصص الكبير في الصحراء، وإلى حد الآن مازالت كتاباته تعد مصدرا لا يمكن الاستغناء عنه. إلى جانب مارتي نجد مشاركة كل من روبير مونتان أحد أبرز وجوه البحث السوسيولوجي في المغرب، حول مسألة الحدود، وتراس وريكارد ومقالات أخرى[55].

---

[54] -MARTY (P). *Etudes sur l'Islam et les tribus du Soudan*, Leroux, tome I: 1920, tome II: 1919, tome III: 1921, tome IV: 1920.

MARTY, P., *L'Islam en Mauritanie et au Sénégal*, Leroux, 1916.

MARTY, P., l'Emirat du Trarza, E. Leroux, 1919.

MARTY, P., "La politique musulmane du gouvernement William Ponty", *RE. M. M.*, XXXI, 1915-16, pp: 1-28.

MARTY, P., « Le livre des lettrés renseignés sur les puis », *BCEHSAOF*, 1920, 311-345.

MARTY, P., « Poème de Mahammed al-Yadali à la louage de l'Emir des Braknas, Ahmad Ould Heiba », *BCEHSAOF*, 4, 1921, 264-267.

MARTY, P., « Poème historique d'abou Bakr Abn Hejab, leDimani », *BCEHSAOF*, 4, 1921, 252-263.

MARTY, P., « Tableau historique de Cheikh Sidia », *BCEHSAOF*, 4, 1921, 76-95.

MARTY, P., « les chroniques de Oualata et de Nema (Soudan Français) », Collection de la revue des Etudes Islamiques, paris, 1927, pp. 355-375)

MARTY, P., *Les tributs de la haute Mauritanie. Paris*, Leroux .

MARTY, P., *Etudes sur l'Islam maure (Cheikh Sidia et sa Voie, Les Fadelia, les Idaou Aïi)*, Leroux, 1916.[Revue de Monde Musulamn (XXXI),1915-1916, 137 et sq]

[55]- هذه لائحة الدراسات المنشورة في عدد 1930 ,XI ,Hespéris:

LA CHAPELLE, F. DE., « Esquisse d'une histoire du Sahara occidental », p. 35-95.

RICARD, R., « Les Portugais et le Sahara atlantique au xve siècle », p. 97-110.

MONTAGNE, R., « La limite du Maroc et du Sahara atlantique », 9 pl., carte, p. 111.

MARTY, P., « Les Nimadi, Maures sauvages et chasseurs », p. 119.

TERRASSE, H., « Notes sur l'origine des bijoux du Sud marocain », 5 pl., p. 125-130.

COLIN, G., « Mauritanica. I. Le Wasît; II. Le parler arabe de Mauritanie; III. Bibliographie provisoire de l'arabe de Mauritanie », p. 131-143.

DELAYE, T., « Remarques zoogéographiques sur le Sahara marocain », pl., carte, p. 145-177.

PIGEOT. « Carte de reconnaissance de l'Iguidi et des régions à l'Ouest de Tabelbala et au Sud de l'Oued Dra », carte, p. 178-192.

MARTIN, « Observations géographiques sur les Eglab et le Haut-plateau du Dra », p. 193-202.

FUNCK-BRENTANO, C., « Bibliographie du Sahara occidental », p. 203-296.

من جهتنا سنقتصر في هذا المقال على مساهمة فريديريك دولاشابيل F. De la chapelle والذي يعتبر نصه من أهم المساهمات في هذا العدد من مجلة اسبيريس Hespéris حول الصحراء، فهو الذي افتتحت به المجلة عددها، ويعد كذلك الأطول والأكثر توثيقا. والكاتب يعلن منذ عنوان المقال أن غايته هو تقديم "نبذة عن تاريخ الصحراء الغربية" «Esquisse d'une histoire du Sahara occidental». فهو من خلال مقاله يقدم الأحداث واللحظات الحاسمة من تاريخ الصحراء منذ ماقبل التاريخ إلى حدود بداية الحماية في المغرب، ضمن رؤية شمولية لتاريخ الصحراء. لقد تمكن دولاشبيل من الحصول على جل، إن لم نقل كل، الكتابات المتوفرة حول تاريخ الصحراء لدى الفرنسيين، إضافة إلى معلوماته الخاصة، والتي جمعها إبان دراساته الميدانية. واستطاع من خلال عمل تركيبي مركز كتابة تاريخ الصحراء دون الخوض في كل التفاصيل، خصوصا فيما يتعلق بالقبائل وفروعها، كما هو سائد في المنوغرافيات الاستعمارية السائدة في تلك الحقبة حول الصحراء. وهو عمل قام به دولاشبيل نفسه بعد نشر مقاله هذا، حول قبائل تكنة الذي نشر في البداية على شكل مقالات متفرقة في ثلاثة أعداد من مجلة لجنة إفريقيا الغربية Revue du comité de l'Afrique française سنة1931 قبل أن تجمع في كتاب سنة 1934. وتجدر الإشارة إلى أنه في مرحلة كتابة هذه النصوص، و صدور هذا العدد من المجلة، لم تكن الجيوش الفرنسية قد وصلت بعد إلى الصحراء، فهي لم تصل إلى حدودها الشمالية (وادي نون وتندوف) إلا سنة 1934. ولم تكن فرنسا متواجدة فعليا إلا في موريتانيا. أما اسبانيا فلم يتعد تواجدها في هذه الحقبة مراكز صغيرة على الشاطئ، خاصة الداخلة والطرفاية. ولم يحتل الجنود الإسبان السمارة مثلا إلا سنة 1934.

وقبل أن نتناول المقال المذكور، يجدر بنا أن نتوقف عند مسار كاتبه، فإلى حد الآن، ورغم أهمية كتابته حول الصحراء، لم تنشر أي معلومات عن حياة دولاشبيل تمكننا من الوقوف على مساره العلمي

ومصدر معلوماته حول الصحراء. ورغم بحثنا المكثف عن هذه المعلومات تعذر علينا لمدة سنين العثور عما يفيدنا في هذا الباب، حتى تمكنا من الحصول في الآونة الأخيرة على ملفه العسكري بالأرشيفات العسكرية بفانسن بضاحية باريس. كان هذا الملف بمثابة المفتاح الذي مهد لنا معرفة السياق التاريخي والظروف والأماكن التي أجرى فيها دولاشبيل أبحاثه ومصدر معلوماته حول الصحراء وكذلك مساره المهني.

ولد دولاشبيل يوم 27 غشت 1897 بجزيرة فيلين Vilaine وأنخرط في الجيش سنة 1916 كمتطوع ليتخرج من المدرسة المتخصصة العسكرية Saint-Cyr سنة 1917. مباشرة بعد تخرجه شارك في الحرب العالمية الأولى. ومع نهاية الحرب انتقل إلى الخدمة في الجيش الفرنسي بالمغرب سنة 1919، بفرقة المدفعية. ثم عاد سنة 1921 لفرنسا ليلتحق من جديد بالمغرب، بمصلحة الاستعلامات حيث أبان عن قدرات هامة خاصة بالجنوب في منطقة مراكش بشيشاوة، وبعدها لدى قبائل سوس، خاصة قرب تارودانت. وعاد دولاشبيل سنة 1926 إلى فرنسا وتلقى تكوينا في اللاسلكي ووضع رهن إشارة الإقامة العامة بالمغرب سنة 1928، ليتم توظيفه من طرف الأركان العامة للجيش في "مكتب مهمات الاستعلامات والبحث في الجنوب المغربي". وإبان هذه الفترة تفرغ لكتابة التقارير الاستعلاماتية والاستخباراتية حول القبائل "غير الخاضعة" tribus insoumises، والتي كانت ذات قيمة كبيرة بالنسبة لإدارة الحماية في احتلالها وتدبير شؤون القبائل في هذه المنطقة بعد ذلك. وبسرعة أثارت تقاريره انتباه سلطات الحماية ليلتحق بمركز التوثيق السوسيولوجي بالرباط centre de documentation sociologique والذي تقلد فيه منصب نائب المدير، وهو حينئذ الكومندان روبير مونتان، أحد أهم وجوه البحث السوسيولوجي حول المغرب أبتداء من سنة 1930. وسريعا حل دولاشبيل محله مديرا لمركز السوسيولوجيا الذي كان تابعا في الوقت نفسه للإقامة العامة (مديرية الشؤون

الأهلية) ووزارة التربية والمكتب الثاني للقيادة العامة 2° bureau de l'Etat-Major. في هذه الفترة عين دولاشبيل أستاذا محاضرا بمعهد الدراسات العليا المغربية بالرباط. وكان القبطان دولاشبيل يحتل كرسي السوسيولوجيا حيث يدرس السوسيولوجيا والتاريخ والاثنولوجيا للضباط والمراقبين المدنيين للشؤون الأهلية. وحينها نشر دراسات هامة في مجلات متخصصة[56].

مباشرة بعد هذه السنين الغنية بالمساهمات حول جنوب المغرب على وجه الخصوص، ونظرا للخبرة التي راكمها عين دولاشبيل سنة 1933 في مكتب الشؤون الإسلامية بشعبة ماوراء البحار للقيادة العامة للجيش بباريس وهو ما مكنه من أن يكتسب رؤية شمولية حول العالم الإسلامي.

وفي ما بين 1936 و1939، بقي دولاشبيل في ضواحي باريس متحملا مسؤوليات عسكرية وناشطا في التأطير السياسي ضد النازية، ومع بداية احتلال الألمان لفرنسا انخرط في المقاومة حتى تم اعتقاله، ليعود منهكا بسنين من الاعتقال المضنية، ويتفرغ لمهام عسكرية تاركا البحث العلمي وراءه. فلم نعد نعثر على أي مقالة أو دراسة للأستاذ السوسيولوجيا الذي أنجز دراسات منوغرافية واثنوغرافية ومقالات تاريخية دقيقة وهامة. لقد اختفى هذا الدور وراء شخصية ضابط سامي أنهى مساره جنرالا في خدمة المؤسسة العسكرية،

---

[56] « Une cité de l'oued Dra sous le protectorat des nomades », *Héspéris* (1er trimestre 1930)

« Le Sultant Moulay Ismail et les Berbères Sanhaja du Maroc centra », *Archives marocaine*, 1931

« Les Tekna du Sud marocain », *Revue du comité de l'Afrique française*, 1931

« Notes sur le front du territoire d'Agadir et l'intervention u Maroc au Sahara », *Revue militaires de l'Afrique occidental française*, juillet 1932.

« Les tribus de haute montagne de l'Atlas », *Revue des études islamique*, année 1928

ومكلفا كخبير بمهام حساسة على المستوى العسكري الأروبي. وحتى بعد تقاعده من الجيش، انخرط دولاشبيل في تكوين أطر الشركات الصناعية بشمال فرنسا. وفي آخر حياته عاش مريضا من مضاعفات ما تعرض له إبان الحرب العالمية الأولى، ومن مفعول الغازات والسجن إبان الحرب العالمية الثانية حتى توفي بباريس في شهر مارس سنة 1984.

إن مسار البحث السوسيولوجي والأثنوغرافي لدولاشبيل توقف في عز نشاطه في بداية الثلاثينات في ظل الحماية بالمغرب، على عكس معاصريه من أمثال روبير مونتنان الذي استمر في حقل البحث العلمي حتى وفاته مشرفا على مراكز البحث حول العالم الإسلامي بفرنسا. فلقد أبان دولاشبيل إبان المدة الوجيزة، التي قضاها في المغرب كباحث، عن قدرة كبيرة على استيعاب تاريخ المغرب والقيام بأبحاث ميدانية وجمع المعلومات ذات القيمة الإثنوغرافية، كما يشهد له بذلك رؤسائه. وفي كل التقارير المنجزة من طرف هؤلاء، كانت تتم الإشادة دائما بدولاشبيل كعسكري ذكي متحمس مجد له قدرة كبيره على التحمل ومؤهلات في الإستعلامات، و ثقافة كبيرة، وأنه يعتبر من النخبة التي يعول عليها في الحماية. ألم يشد مدير بالنيابة لشؤون الأهلية، في تقرير بتاريخ 29 اكتوبر 1932، بكفاءات دولاشبيل المعرفية عن المغرب بقوله " لقد كتب عدة دراسات حول مختلف المواضيع التي تمس السياسة الأهلية، وأن هذه الدراسات تبين تميز صاحبها بـ "نوعية الملاحظة والمنهجية". هذه الدراسات هي التي شكلت بعد ذلك مصدرا مهما ليس فقط للإدراة الاستعمارية في تدبير شؤون القبائل بل أيضا بالنسبة للباحثين كبار، مثل جاك بيرك الذي يعترف أنه في دراسته الهامة حول قبائل سكساوة استفاد كثيرا من المعلومات التي جمعها دولاشبيل لما كان يقوم بمهامه بمنطقة شيشاوة.

ويعكس مقال دولاشبيل حول الصحراء بشكل لا جدال فيه قدرته الفائقة على التركيب والتحليل وإعادة بناء تواتر الأحداث بشكل منتظم وخاضع لرؤية وإشكالية محددة، حتى وإن كنا لا نتفق معها كما سنبين ذلك فيما بعد. أما فيما يتعلق بمصدر معلوماته حول الموضوع، فإن ملفه في الأرشيفات العسكرية، يفصح بشكل مباشر عن هذه المصادر وهو ما لا نجده في أي من كتابات دولاشبيل نفسه. ففي تقرير لرئيس أركان الجيش سنة 1932 نقرأ حول دولاشبيل ما يلي : "في سنة 1930، ونظرا لاستطلاعاته، شارك في تحرير دراسة حول وادي نون، وادي الذهب و موريتانيا التي منحته تهنئة وزير الشؤون الخارجية للمقيم العام لفرنسا بالمغرب و الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية" (تقرير لرئيس أركان الجيش 1932). وتضم وثيقة مؤرخة بـ 20 أكتوبر 1930 معلومة هامة حول دولاشبيل، قد تفسر أحد أهم مصادر كتاباته حول الصحراء، وخاصة نصه موضوع الدراسة جاء فيها "لقد قام اليوتنان دولاشبيل في غضون هذا الخريف بمهمة لمدة ثلاثة أشهر في موريتانيا، ولقد حمل من هذا السفر وثائق عديدة ذات أهمية كبرى بالنسبة للمغرب، وهي التي أتاحت له تحرير ثلاثة نصوص رائعة حول مستعمرة موريتانيا وقبائل الصحراء الغربية ووضعية الاسبان في مستعمراتهم الصحراوية". لم تكن مصادر معلومات دولاشبيل عن الصحراء من موريتانيا فقط بل كذلك من الجنوب المغربي، ففي تقرير للإدارة العامة للشؤون الأهلية بالمغرب بتاريخ 19 أكتوبر 1928، نقف على أن دولاشبيل قام بمهمة استخباراتية في منطقة سوس لدى ما يسميه التقرير بالقبائل غير خاضعة بسوس، وأنه جاء بمعلومات استخباراتية هامة جدا. وبالطبع كان ضمن هذه المعلومات ما هو خاص بالصحراء وبالتحديد بقبائل تكنة، كما يستشف من دراسته حول هذه القبائل.

يعتبر مقال "نبذة من تاريخ الصحراء"، على عكس المنوغرافية المخصصة لقبائل الصحراء، نصا تركيبيا يمتزج فيه الوصف والتحليل، مكتوب بطريقة تحترم معايير التوثيق والكتابة التاريخية.

النص يحفل بالإحالات المرجعية الغنية بالتفاصيل والشروح والمصادر والمراجع. فالمؤلف لا يدع أي فرصة تمر دون أن يوضح ويوثق لمصادر معلوماته في الهامش. وتتوزع هذه المصادر بين مصادر أجنبية وأخرى عربية ورواية شفوية.

إن دراسة دولاشبيل تعد الأولى من نوعها كعمل تركيبي حول تاريخ الصحراء. فلقد حاول المؤلف أن يقدم خلاصات واستنتاجات ومعلومات تاريخية، إلى حدود تلك الحقبة حول الصحراء، معتمدا بالأساس على الكتابات الأجنبية مع العودة أحيانا إلى الكتابات العربية المترجمة حينئذ إلى الفرنسية، مثل ابن خلدون. ويبرر المؤلف اهتمامه بالصحراء لتاريخها ودورها في المنطقة المغاربية، كما أنه يحاول سبر أغوارها الكامنة منذ قرون، يساعده في ذلك طبيعة ساكنة المنطقة التي حافظت على صفحات من ماضيها عبر الروايات الشفوية والشعر وخاصة الوثائق المخطوطة التي تمكن هؤلاء الرحل، خاصة من الفئة العالمة، من تدوينها والمحافظة عليها من الاندثار.

يبدأ دولاشبيل تأريخه للصحراء بعصور ما قبل التاريخ، رغم أن معلوماته، حول هذه الحقبة التي عرفت استيطان العنصر الأسود، قبل اندحاره أمام العنصر الأبيض المتمثل في القبائل البربرية النازحة من شمال افريقيا، تظل مجرد افتراضات. وهو ما لا يخفيه هو نفسه، حين يقول بأن التاريخ الحقيقي للصحراء لا يبدأ إلا مع دخول الجمل، بمعنى أنه ابتداء من هذه المرحلة حدث منعطف هام في تاريخ المنطقة. ومع تقدمنا في قراءة نص دولاشبيل حول تاريخ الصحراء وساكنتها تبرز تدريجيا الأطروحة الناظمة لمقاربته والخيط الرابط بين الأحداث المحركة لتاريخ المنطقة : الصراع بين البربر والعرب. فلا يجب أن نغفل أن دراسة دولاشبيل تعد مدخلا رئيسيا للباحث من أجل معرفة ما راكمته الدراسات الفرنسية حول الصحراء من معلومات وأيضا على مستوى المنظور. فأهمية عمله تكمن، إلى جانب المعلومات الغزيرة، في عامل مهم جدا، إنه يعكس الرؤية

الاستعمارية لتاريخ الصحراء وكيف يتم توظيف المعلومات والأحداث من أجل تبرير هذه الرؤية والنظرة الاستعمارية التي سنوضحها في حينها.

ظل دولاشبيل أسير النظرة لاستعمارية التي كانت مهيمنة على قراءة التاريخ المغاربي والقائمة على ثنائية الصراع بين البربر والعرب. فقبله قام كبولاني Coppolani، المنحدر من المدرسة الجزائرية التي عرفت ولادة هذه الأطروحة، بتوظيف تلك الأطروحة في مجال المجتمع البيضاني. فهو إبان مهمته في جنوب بلاد البيضان[57]، قصد التمهيد للخطة الاستعمارية، وكانت أول استنتاجاته أن ساكنة هذا البلد هي من القبائل البربرية التي فرت أمام الغزو العربي لشمال افريقيا، وخلص إلى كون البيضان يعودون بأصولهم إلى موريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية القديمة. لهذا أطلق على البلد اسم "موريتانيا الحديثة"[58].

وطيلة صفحات مقال، دولاشبيل، هيمنت هذه الأطروحة على قراءة وتأويل وتقديم أحداث المنطقة. فمحرك تاريخ الصحراء هو هذا الصراع شبه الأزلي بين البربر= صنهاجة والعرب = القبائل المعقلية. فهو لا يرى الأحداث التي عرفتها الصحراء الأطلنتية إلا بمنظار الصراع بين هاتين المجموعتين في قراءة عرقية للتاريخ، وكأن أسس الصراع تعود للأصول العرقية والسلالية، وليس لمصالح سياسية واقتصادي ودينية. وحتى داخل المجموعة الأمازغية فإن تاريخها منظور إليه من خلال منطق الصراع كذلك بين المكونات القبلية الكبرى للبربر على أساس اختلاف الأصول السلالية، خاصة بين زناتة وصنهاجة، قبل أن تدخل على الخط القبائل العربية الموسومة بالهمجية وذات الرغبة الجامحة في إخضاع البربري النبيل

---

[57] - وقام كبولاني Coppolani، الذي يعتبر مهندس السياسية الاستعمارية الفرنسية في غرب إفريقيا، برحلة في الجنوب الشرقي لبلاد البيضان على إثرها كتب تقريرا نشر سنة 1899 يصف فيه الوضع العام للبلد
COPPOLANI, X., Rapport d'ensemble sur ma mission au Soudan Français, op., cit.
[58] - Ibid, p. 11.

الحر، والتي شكلت حرب شربيه في القرن 17م أوجها. لتدخل المنطقة بعد ذلك في مرحلة سوداء موسومة بنضال البربر المرير والطويل من أجل استرجاع أمجادهم المفقودة دون يأس، مثل نموذج ماء العينين الذي أحيا مجد المرابطين و طموح صنهاجة في بداية القرن العشرين، وكاد أن يعتلي عرش المغرب لولا التدخل الفرنسي. وهي الفكرة التي تكون قد أوحت بالتأكيد لباحثة بعد ذلك بعقود أن تعنون مقالها عن ماء العينين بـ : "ماء العينين والمغرب أو هزيمة مرابطي حديث"[59] في إحالة للحركة المرابطية التي عرفتها المنطقة في القرن 11م بقيادة صنهاجة الصحراء.

إن تاريخ الصحراء، كما يقدمه دولاشبيل، منظور له ومقدم من منطلق الصراع بين المجموعات القبيلة والاثنية. فلقد كان الصراع في البداية بين البربر والسود، ليتحول بعد ذلك إلى صراع بين البربر أنفسهم خاصة زناتة وصنهاجة من أجل السيطرة على الطرق التجارية الصحراوية، عصب اقتصاد المغرب الأقصى، سواء قبل الحركة المرابطية أو بعدها. مع الدولة المرابطية مد الصنهاجيون سيطرتهم من الصحراء حتى الأندلس، قبل أن تنهار دولتهم و تتكرس من جديد سلطة الزناتيين المصامد مع نشأة الدولة الموحدية. هذا الحدث حسب المؤلف يجسد انتقام الزناتيين المصامدة من الصنهاجيين[60]. فبرأيه فقد شكل الزناتيون، العدو التقليدي للصنهاجين.

في هذه الحقبة ستتدخل، حسب دولاشبيل، قوة اثنية جديدة في هذا الصراع وهي القبائل المعقلية، ليتحول الصراع البربري البربري الذي كان بين زناتة وصنهاجة إلى صراع بربري عربي، وخصوصا في الصحراء بين صنهاجة ومعقل. يقدم لنا المؤلف هذه القبائل العربية كغازية وناهبة وفي أحسن الأحوال أداة بين أيدي السلاطين

---

[59] - DESIRE-VUILLEMIN (Geneviève)."Cheikh Ma el Aïnin et le Maroc ou l'échec d'un moderne almoravide". *Revue d'Histoire des colonies*, nov.1958, 29-60

[60] - CHAPELLE, F. DE LA, « Esquisse.. », p. 65

المرنيين ضد القبائل الصنهاجية الخارجة عن سلطتهم. لكن السلاطين ندموا على هذا التوظيف وجندوا طاقتهم لمحاربة القبائل العربية، نظرا لأن هذه القبائل سرعان ما خرجت من تحت مراقبتهم لتصبح مصدر اضطرابات. ونسرد فيما يلي هذا المقطع الذي يؤرخ فيه المؤلف لظروف وصول القبائل العربية ودورها السلبي والخطير في المنطقة :

"في حين وجد الصنهاجيون نفسهم في الجنوب منعزلين عن منطقة السهوب أو تابعين، هيمن على شمال الساقية الحمراء وليكيدي عرب معقل، وبتحالف الزناتين معهم، تمكنت إحدى قبائلهم من أخذ ثأرهم من هزائمهم الماضية. وهي بنو مرين، والتي صمدت بتوات، تمكنت من الاستيلاء على المغرب وتأسيس سلالة به في بداية القرن الثاني عشر على أنقاض الإمبراطورية الموحدية. وقد شكل المعقليون في الجنوب أداة هيمنة السلاطين الجدد وجباة ضرائبهم. هكذا استغلوا بسرعة هذه الوضعية حيث سرقوا وابتزوا الناس في كل الطرقات، وانتهوا بالحلم بهجرة جديدة نحو الشمال بحثا عن السهول الأطلنتية حسب القانون العام لسكان المنطقة القريبة من الصحراء. وقد أدرك السلاطين المرينيون الخطر الذي يشكله المعقليون وندموا بدون شك على تشجيعهم على التوسع[...].

وهكذا، وخوفا من انتقام [المرينيين] أو فقط بدافع البحث عن مراع جديدة، فان جزءا من هؤلاء سيتحركون ببطء نحو القرن الثالث عشر وخاصة انطلاقا من القرن الخامس عشر، ولكن هذه المرة في اتجاه الجنوب نحو موريتانيا. لم يعد الأمر يتعلق باجتياح كبير جماعي لكن بواسطة مجموعات صغرى تغلغلت بالتناوب بين الصنهاجين عبر سنوات أو حتى عبر قرون، قبل أن تكتسحهم وتجعلهم تابعين أو تطردهم أمامها. اتسع مدهم من أدرار نحو الحوض لكي ينتهي في حوض النيجر، وفي أزاواد شمال تومبوكتو. وهكذا، بدون شك، نشأت بين القبائل البيضانية تراتبية استمرت إلى

أيامنا هاته : في القمة الحسانيون المنحدرون من محاربي معقل ، ثم زوايا المرابطين ذو الأصول الصنهاجية وزناكة أو صنهاجة التابعين والمعلمين وهم حدادون من أصول يفترض أنها يهودية وأخيرا الحراطين والعبيد والذين يمثلون العرق الأسود."[61]

ظل الصراع بين البربر والعرب بالنسبة لدولاشبيل محرك تاريخ الصحراء، ورغم انتصار القبائل العربية، فإن صنهاجة ظل يراودها الحنين لاسترجاع أمجادها وتنتظر الفرصة السانحة من أجل أخذ الثأر من العرب. سواء مع معركة شربيه أو مع حركة الشيخ ماء العينين الذي يمثل إعادة لتجربة الحركة المرابطية في الوصول إلى السلطة. ولقد شكلت التجربة الأولى، شُرْبُبَّه، اللحظة التاريخية التي رأى فيها دولاشبيل فرصة لتبرير أطروحته حول الصراع بين العرب والبربر، وهو في هذا الميدان ليس الوحيد. فجل الدراسات المتعلقة بالحقبة الاستعمارية توقفت عند هذا الحدث كي تفسر من خلاله أطروحة الصراع بين العرب والبربر، لذا سنتوقف عندها لاحقا لتبيان خلفياتها. يستحضر دولاشبيل دعوة ناصر الدين في نصه بالقول : "بدعوة من ناصر الدين، ومرابط لمتوني أصبحُ أميرا لهم، قام عدد كبير من القبائل الصنهاجيين بانتفاضة نحو 1644 من تيرس إلى السنيغال. لقد فرضوا في البداية هيمنتهم على سود النهر (السنغال) ثم دخلوا في ثورة ضد حسان، وكانت حرب بابا الشهيرة، والتي ما زال يتغنى بها في الخيام البيضانية. عرف المعقليون 30 سنة من الإخفاق، قبل أن يستغلوا الشقاق الداخلي للبربر، وكرست معاهدة سلم "تين يد فاد" سنة 1674 خضوعهم."[62]

فشل الصنهاجيين في محاولتهم الثأرية من أجل استرجاع أمجادهم في هذا الجزء من الصحراء، يقابله انتصار أبناء عمومتهم من الصنهاجيين في الحدود المغربية الجزائرية، الذين نجحوا في

---

[61] - Ibid, p. 68-67
[62] - Ibid, p. 87

الهيمنة على الواحات ومنطقة توات في القرن 17م مجبرين العرب على الاندحار ومدمرين المداشر والقصور ومتحالفين مع الطوارق أيضا في هجوماتهم على السود جنوبا.

ودائما في رصده لانتصارات صنهاجة ضد العرب في الصحراء الكبرى، يتطرق دولاشبيل إلى الواجهة الشرقية من الصحراء التي عرفت فيها قبائل صنهاجة انتصارات ضد القبائل العربية في القرن 18م، حيث أن آيت عطا وآيت افيلمان استعادت واحات غريس وجزءا من واحة زيز وتافيلالت ودمروا سجلماسة سنة 1818م، وتمكنوا من طرد العرب منها نحو الشمال، ومن بقي منهم أصبح في وضعية دنيا تابعا لهم. لقد أصبحت هذه المجموعات الصنهاجية صاحبة السيادة تفرض سلطتها على من بقي من المعقليين[63]. وكان يحز في نفس دولاشبيل فشل صنهاجة غرب الصحراء، مقابل ما حققه صنهاجة المناطق الصحراوية الأخرى في مواجهة العنصر العربي، وإن لم يكن يعبرعن ذلك بشكل مباشر.

أمام فشل صنهاجة الصحراء حسب دولاشبيل في محاولتهم استرداد سلطتهم في غرب الصحراء، تمكنت القبائل العربية من الاستحواذ على السلطة، وخلق جو من عدم الأمن والرعب في البلد وفرض حيفها على القبائل الصنهاجية التي أصبحت في جلها قبائل تابعة "زناكة" في وضعية دونية.

لم تكن حركة ناصر الدين وفشلها في رد الاعتبار لصنهاجة هي آخر المحاولات لبربر الصحراء في مواجهة العرب المعقليين. فهم لم يفقدوا الأمل حسب قراءة دولاشبيل لتاريخ المنطقة الصحراوية، ففي بداية القرن العشرين وكما سبق أن ذكرنا ستجسد حركة ماء العينين فرصة جديدة تعبرعن نهضة قبائل صنهاجة وإرادتهم في التحرير بعد ثلاثة قرون من الخضوع وثورتهم الدائمة من أجل استرداد

---

[63]- Ibid, p. 88

السلطة المغصوبة. وحتى بعد انهزام ماء العينين أمام التدخل المسيحي فإن ابنه الهيبة سيجرب حظه معلنا نفسه سلطانا على المغرب، ولولا التدخل الفرنسي لما فشلت حركته[64].

نعود الآن إلى مناقشة إشكالية الصراع البربري العربي الذي طغى على الدراسات الاستعمارية والذي يعد دولاشبيل أحد أهم منظريه فيما يتعلق بالصحراء، ونأخذ هنا الحدث الذي ظن هؤلاء الباحثون اعتباره المجسد التاريخي لهذا الصراع و المبرر لأطروحتم في الموضوع. يتعلق الأمر بحدث حركة ناصر الدين و حرب شُرْبُبَّه في القرن 17م التي دارت رحاها ما بين 1671م و1677م في منطقة جنوب غرب البلاد من موريتانيا حاليا.[65]

إن هذا الحدث المعروف في الأدبيات التاريخية المحلية باسم شُرْبُبَّه شكل لحظة حاسمة مؤسسة، لأنه يعتبر لدى العديد من الباحثين *الحدث المؤسس للمجتمع البيضاني* سواء في تشكل السلطة الأميرية أو التراتبية الاجتماعية، وفي نفس الآن اللحظة الحاسمة التي كرست السيطرة العربية وانتصار المعقليين وهيمنتهم على الصحراء وانتشار قيمهم الثقافية والاجتماعية ولغتهم على حساب أهل البلد الأصليين، البربر.

لقد طبع الكتابات التاريخية الاستعمارية حول شُرْبُبَّه تأويل قائم على التعارض الثنائي بين القبائل المعقلية العربية والقبائل الصنهاجية البربرية مفاده أن القبائل المعقلية الوافدة للبلد شنت حرب إبادة ضد القبائل الأصلية الصنهاجية. ونجد هذا التأويل حتى في كتابات لاحقة لفترة الاستعمار، والتي ترى في الاختلاف الثقافي اللغوي عاملا رئيسيا من وراء قيام حرب شُرْبُبَّه. وما مشروع ترجمة ونشر

---

[64]- Ibid, p. 94

[65]- لن نتوقف هنا عند كرونولوجيا أحداث هذه الحركة ولا عند الظروف الإقتصادية والسياسية التي كانت وراءها. ونحيل في هذا الموضوع القارئ على كتاب المختار محمد المختار ولد السعد، حرب شُرْبُبَّه أو أزمة القرن 17 في الجنوب الغربي الموريتاني، منشورات المعهد الموريتاني للبحث العلمي، انوكشوط، 1993.

نصوص محمد اليدالي[66] في الفترة الاستعمارية إلا محاولة تنخرط في إطار تبرير هذه النظرة. فلقد ظن الكتاب الاستعماريون أنهم وجدوا في نصوص محمد اليدالي ما يبرر أطروحتهم. ونحن نرى أنه بقراءة نصوص محمد اليدالي لا يمكن أن نخرج باستنتاج يذهب في نفس اتجاه الكتابات الاستعمارية. فلقد أشار محمد اليدالي إلى أنه في بداية الحركة، كان زعيم الحركة، ناصر الدين، مؤازرا بالمغافرة وأولاد رزك، أي أهم فروع بني معقل في البلد. وحتى بعد اندلاع الصراع مع المغافرة، نجده يؤكد على بقاء أولاد رزك مع ناصر الدين ولم ينسحبوا إلا بعد بداية فشل الحركة مثلهم مثل باقي مكونات الحركة من الزوايا[67] الذين تقدمهم الكتابات الاستعمارية كونهم "بربرا". يظهر إذا أنه من الخطأ الانطلاق من شُرْبُبَّه للبحث عن صراع ذي أصول إثنية. وأطروحة بول مارتي وآخرين بعده كانت امتدادا لأطروحة هيمنت على الدراسات في تلك الحقبة الاستعمارية على المجتمعات المغاربية. فتمت مراجعة تاريخ المنطقة من زاوية الصراع بين العرب والبربر. وكان بول مارتي P. Marty وفريديريك دولاشابيل F. De la chapelle على سبيل الحصر يمثلان هذه الأطروحة في ما يتعلق بالمجتمع البيضاني. فمارتي، في كتابه "إمارة الترارزة"، يتأسف على اندثار الحضارة البربرية بسبب عدوانية

---

[66]- يعتبر محمد اليدالي من أبرز علماء بلاد البيضان فهو اشتهر كفقيه ومتصوف ولغوي وشاعر. و ينتمي إلى جيل العلماء الذين عاشوا المراحل التي تلت هزيمة حركة ناصر الدين ولقد فقد هو نفسه العديد من أقاربه في المعارك. وتعكس كتاباته المرارة والخيبة التي عاشتها قبائل الزوايا بعد هذه الهزيمة، خاصة انه ينتمي إلى المجموعة القبيلة التي تأثرت مباشرة بنتائج الحرب الكارثية.

محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، تحقيق محمد ولد باباه، بيت الحكمة، قرطاج، 1990.

ترجمت نصوصه من طرف الجزائري حامد و نشرت سنة 1911

HAMET, I., Chroniques de la Mauritanie sénégalaise, Leroux, Paris, 1911

[67] - يعرف المجتمع البيضاني تراتبية اجتماعية تتميز بوجود فئات اجتماعية: حسان (وظيفة حمل السلاح والحرب) والزوايا (وظيفة دينية) اللحمة أوازناكة (فئة تابعة)، المعلمين الحراطين والعبيد وإكاون. انظر الفصل الفصل السادس. من كتابنا

دراسات صحراوية: المجتمع و السلطة و الدين، دار النشر أبي رقراق، الرباط، 2005 (الطبعة الثانية 2008)

- BOUBRIK, R., « Hommes de Dieu, hommes d'épée : stratification sociale dans la société bidân » *Journal des Africanistes*, Paris, Tome 68- fasc. 1-2, 1998, pp. 261-271.

العرب" حضارة البربر، عملية وتقدمية تتفوق بكثير على العادات العربية المعادية لكل تقدم والمنحدرة من بداوة متجذرة غير ملائمة لأي تطور جدي"[68]. ونجد هذه القراءة لتاريخ المنطقة لازالت تتحكم في بعض الدراسات. فمثلا بقيت ديزيري-فيلمان G.Désiré-Vuillemin وفية للنظرة الاستعمارية ومواصلة نفس الرؤيا. فهي لا ترى في تاريخ موريتانيا إلا عداء دائما بين صنهاجة والعرب. هكذا تقدم صنهاجة، الشعب "الأصيل" على أساس أنه المؤسس لمجتمع مثالي، لرجل حر وقيم أخلاقية نبيلة : تقوى وذكاء وكرم وسخاء وأخوة وعلم..."هذا المجتمع المثالي يتعارض مع مجتمع حسان غالبا جاهل وأكثر إسلامية بالاسم عنه بالقلب"[69]. فمقابل صنهاجة الممثلين للفضيلة تقوم المؤلفة برسم صورة سلبية لحسان من خلال مجموعة من الأوصاف: ظلمة ومحاربون ولصوص... إلى آخره. ولتدعيم نظرتها تقوم الكاتبة بالاعتماد، حسب قولها، على "المصادر العربية" وفي مقدمة هذه المصادر ابن خلدون، منتهجة قراءة انتقائية واختزالية للمقدمة. وتنتقل بعد ذلك إلى المصادر المحلية، فالفصل الخاص بحرب شُرْبُبَّه في كتابها وضعت له عنوانا مبالغا فيه "تاريخ قبائل البيضان انطلاقا من كتاباتهم"[70]. في الواقع الكتابات موضوع العنوان لا تعدو أن تكون نصا يتيما متمثلا في ما ترجم في بداية القرن العشرين من نصوص محمد اليدالي. هذه النصوص شكلت للكتابات التاريخية الاستعمارية النموذج والمرجع الذي يبرر ويدعم نظرتهم في هذا الميدان. وتستشهد المؤلفة فقط بـ "شيم الزوايا" و"أمر الولي ناصر" بدون اللجوء إلى نصوص أخرى ولا حتى القيام بتحليل عميق لنصوص محمد اليدالي نفسها. ونحن نعرف أن هذه القراءة الإثنية والتأويلات المختزلة المعبرة عن خلفيات أيديولوجية استعمارية لا تصمد أمام الوقائع التاريخية التي سنأتي على ذكر بعضها.

---

[68] - MARTY, P., *L'émirat des Trârza*, op. cit., p. 23

[69] -DESERE-VUILLEMIN, G., *Histoire de la Mauritanie : des origines à l'indépendance*, Karthala, Paris, 1997, p. 272.

[70] - Ibid, 253-286.

في الواقع، دارت قبل شُرْبُبَّه حروب قاسية في المنطقة بين مجموعات صنهاجية نفسها. فلقد دخلت قبيلة مدلش الزاوية، والتي كانت تمد سلطتها على مجال كبير من تراب البيضان، في حروب مع قبائل زاوية صنهاجية. ومن آخرها صراعها مع تندغة، قبل شُرْبُبَّه بأربعين سنة، والذي انتهى بفقدان مدلش لسيطرتها. كما أن قبائل الزوايا في الترارزة خاضوا حروبا مريرة بينهم كأيد بلحسن وأيدوعلي. في نفس الإطار تناحرت المجموعات المعقلية فيما بينها قبل شُرْبُبَّه. فلقد فقد أولاد رزك سيطرتهم على المنطقة بعد انهزامهم أمام المغافرة في معركة انتيام الشهيرة سنة 1632م. فالصراعات والحروب لم تكن تتناسب مع التقاطعات الإثنية.

نحن إذا بعيدون عن الرؤية الإثنية التي تجعل كتلة عربية ضد أخرى بربرية أو مجموعة دينية زاوية ضد أخرى اقل تدينا أي محاربة. فالصراع يخضع لمعايير أخرى غير المعايير الإثنية أو الدينية. فالنسب والدين ليسا أحيانا إلا خطابا يتبناه الخصوم من أجل إضفاء الشرعية على ممارساتهم. كما أن الانتماء التراتبي حسان والزوايا لا يتناسب مع ثنائية عرب/بربر. فيجب التأكيد على أن عبارة حسان لا تعني آليا المنحدرين من بني حسان. فهي لها قيمة وظيفية. أنها تعني الحاملين للسلاح مهما كانت أصولهم الجنيالوجية أو الإثنية.

ولتعزيز ما عرضنا له، نستشهد بمحمد اليدالي. فهو يتحدث في آخر نصه عن تشابه شُرْبُبَّه مع أحداث وقعت في بلاد مغاربية أخرى:

"وقد وقع زمان ابن عرفة (786هـ) ما يشبه شُرْبُبَّه، في كون أهله على الحق واتفاق العلماء عليه واحدا، كما في المعيار. قال الونشريسي في المعيار: كان عرب المغرب الأوسط طبعهم الله على الفساد في الأرض وكثرة الغارات وقطع الطريق. فهذا دأب سلفهم وخلفهم. وكانت تبلغ ما بين فارسها وراجلها عشرة آلاف أو تزيد.

قال: ومن أمرائهم الديلمي، وسعيد بن رباح، والسويد، وبنو عامر، فاجتمع الناس على حربهم وجهادهم لما قاله مالك في المدونة في أعراب قطعوا الطريق قال: جهادهم احب إلى من جهاد الروم.

وروى اشهب عنه: أنه أفضل الجهاد. قال ابن القاسم (وأشهب): جهادهم جهاد. ثم إن الناس قاتلوهم وهزموهم، وقتل منهم خلق كثير، واتبعوهم بعد الهزيمة، إذ لا تنكسر شوكتهم بهزيمة واحدة لقوتهم. قال سحنون في اللصوص: يتبعون ولو بلغوا برك الغماد، وليس هروبهم توبة"[71].

نلاحظ من خلال هذا النص أن حرب شُرْبُبَّه تنخرط في إطار يتجاوز بلاد البيضان ومجرد كونها صراعا بين عرب وبربر. ويعتبر محمد اليدالي شُرْبُبَّه جهادا ضد اللصوص مستدلا بذلك بعلماء أقل ما يمكن أن نقول عنهم انهم لا يمثلون العنصر البربري في مواجهة العرب. لا تعني العرب هنا اللصوص كما قد يدل على ذلك بقية نص محمد اليدالي. فهو حين يكفر المغافرة والعرب ليس بسبب أصولهم وانتمائهم الإثني ولكن كمجموعة تمارس نمطا من الحياة والممارسات موسومة بالظلم والسطو. وفي هذا الإطار يوضح جاك بيرك J.Berque أن مصطلح "عرب" في فتاوى فقهاء شمال إفريقيا في هذه الفترة يحيل إلى نمط حياة وليس إلى أصل جنيالوجي[72]. هذه الملاحظة تأتي لتدحض الفرضية القائمة على تفسير الصراع بالثنائية الإثنية. فمحتوى مفهوم "عرب" ومضمونه لا يخص شمال إفريقيا لأن هذا المفهوم أخذ في الشرق الإسلامي بعدا أكثر عمقا في إطار مسار تشكل الهوية الثقافية المؤسسة على الإسلام[73]. كما أن هذا المفهوم في بلد البيضان مزدوج الدلالة فهو له بعد تراتبي ومرتبط بأخلاقيات وممارسات المجموعات المسلحة بعيدا عن الأصل الجنيالوجي.

---

[71] - محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، ص 178.

[72] -BERQUE, J., *L'intérieur du Maghreb*, Gallimard, Paris, 1978, p. 63.

[73] -GRUNEBAUM, G. E. V., *L'identité culturelle de l'islam*, Gallimard, Paris, 1973, p. 21.

تبين هذه الأمثلة أن حرب شُرْبُبَّه لم تكن محددة بالأصل الجنيالوجي والسلالي المتمثل بين العرب والبربر، ولكن بمصالح آنية. فالتحالفات تعقد وتحل حسب مصالح كل طرف في الصراع. فلا يمكن عزل هذه اللحظة التاريخية عن السياق والإطار المحلي والجهوي والدولي. فالحرب كانت مظهرا وتجليا لأزمة عميقة ذات طابع اجتماعي وسياسي واقتصادي.

تجد أطروحة الصراع العربي البربري، كما أشرنا إلى ذلك سابق أصولها في الجزائر لكونها أول مستعمرة في شمال افريقيا. ولقد حمل هذه الأطروحة الباحثون الذين أنشئوا أول مدرسة للتكوين والبحث العلمي في شمال افريقيا والمتمثل بمدرسة الجزائر التي كانت تحت إدارة روني باسي[74]، ومنها تم بعث أول الدارسين للمغرب. لقد كانت أول مدرسة نهل منها الباحثون الاستعماريون بعد ذلك حول المغرب واستنبطوا منها نموذجهم خصوصا في التاريخ الذي يعد كتاب كوتييه حول "القرون المظلمة "[75] دليلهم ومرجعهم على المستوى الأيديولوجي في كتابة تاريخ المنطقة المغاربية. وهو المؤسس البارز لأطروحة الصراع البربري العربي في شمال إفريقيا وصمود القبائل البربرية أمام قبائل العرب الغازية منذ العصر الوسيط.

انتقلت هذه الأطروحة إلى المغرب مع بدايات تأسيس البعثة العلمية بالمغرب، وكان ميشوبلير المروج لها إلى جانب آخرين. ففي مقاله عن "التنظيم المغربي" المنشور سنة 1909 بمجلة العالم الإسلامي[76] التي كانت تصدر عن البعثة العلمية بالمغرب، التي

---

[74]- روني باسي خصص بدوره نصا حول بلاد البيضان نشر فيه بعض المخطوطات حول انساب قبائل البلد
BASSET, R., *Mission au Sénégal (recherches historiques sur les Maures)*, Leroux, Paris, 1911, p. 546

[75] -GAUTIER, EF., *L'islamisation de l'Afrique du Nord: Les siècles obscurs du Maghreb*, Paris, 1927 (27ème., éd, Paris, 1937)

[76] -MICHAUX-BELLAIRE Ed., « Organisme marocain », Revue du Monde musulman, septembre, 1909, pp 1-43

يرأسها هو نفسه حينئذ، نجد ميشوبلير في هذا المقال المؤسس، يدافع بحماس منقطع النظير عن أطروحة العرب الغزاة الدخلاء في مقابل البربر السكان الأصليين للمغرب و الرافضين على الدوام لهذا الدخيل الذي لا تجسده فقط القبائل العربية الوافدة على البلد منذ الفتح الإسلامي، بل أيضا مؤسسة المخزن، منذ تأسيس أول دولة مركزية في المغرب مع الأدارسة. فالمخزن حسب ميشوبلير مؤسسة غير شرعية ومنبوذة من الساكنة الأصلية.

فهو لا يرى في مكونات المخزن إلا مرتزقة عرب دخيلين على المجتمع الأصلي الذي تمثله القبائل البربرية. التي ظلت في ثورة وعصيان دائم وصراع مرير مع سلطة هذه الأقلية العربية الدخيلة والغازية والتي تحتكر السلطة وأجهزتها المتمثلة في المخزن بعنفه وضرائبه وحركاته التأديبية في بلاد السيبة. والمقاومة لا تتجلى فقط على المستوى العسكري بل أيضا الديني فهذه القبائل البربرية تطبق العرف بدلا من الشرع كما أن مواطنها عن المستوى المجالي تتموقع في الجبل بدل السهل.

هذه الأطروحة خلقت ثنائية مبنية على منطق الصراع : عرب/بربر، مخزن/سيبة، شرع/عرف، سهل/ جبل. ولا يخفى هدفها في حينه، فهي كانت تمهد لما يسمى بالظهير البربري وسياسية الحماية في البلد القائمة على التقسيم بين مكونات المجتمع المغربي بتوظيف سلاح المعرفة الذي يخفي وراء شعار العلمية في البحث التاريخي والاجتماع، أبعادا ايديلوجية و سياسية استعمارية.

سيجد منطق التضاد هذا بين مكونيين لمجتمعات شمال افريقيا امتداده في غرب الصحراء مع ثنائية زوايا/محاربين، حسان/زوايا، صنهاجة/عرب. فالمحاربون وحسان والعرب الذي تمثله القبائل المعقلية ستصبح هي مرادف المخزن في المغرب، فهي قوة دخيلة وتحتكر السلطة بالعنف وتمارس جميع أشكال الاضطهاد على الساكنة الأصلية التي يمثلها صنهاجة الفئة المسالمة والمضطهدة والتي

اغتصبت منها السلطة وخيرات البلد، والتي اكتفت بوظيفة حمل الكتاب بدل السلاح. يتبين إذا، أن دولاشبيل شكل امتدادا للمدرسة السوسيولوجية الاستعمارية التي أسس اطروحاتها ميشوبلير واستمرت لعقود من عهد الحماية في دراسات أخرى مثل تلك التي أنجزها روبير مونتان[77] حول الجنوب المغربي في كتابه "البربر والمخزن" أحد أرقى تجلياتها في بعده النظري والأكاديمي، لكون هذا الأخير سيحتل كرسي بكوليج دوفرانس كتتويج لمساره "العلمي".

إذا تجاوزنا هذا الطرح الأيديولوجي الذي تحكم في رؤية دولاشبيل، فإننا نجد في نص "نبذة عن تاريخ الصحراء الغربية"، معطيات تاريخية هامة. فلقد تناول تاريخ الصحراء من مرحلة ماقبل التاريخ حتى بداية القرن العشرين متوقفا عند أهم المحطات التاريخية والأحداث التي أثرت على مسارها. فنحن باختيارنا الكشف عن خلفيات النص الأيديلوجية وضعف السند المعرفي لأطروحته أمام المعطيات التاريخية، فإن النص قدم لنا خلاصة الأبحاث عن الصحراء وصفحات من ماضيها انطلاقا من النصوص والتقارير الفرنسية، دون إهمال الروايات الشفوية والوثائق المخطوطة، التي تمكن هؤلاء الرحل، خاصة من الفئة العالمة من تدوينها والمحافظة عليها من الاندثار.

[77] -MONTAGNE, R., *Les berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc - Essai sur la transformation politique des berbères sédentaires*, felix Alcan, 1930.